دواب الأرض في القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطوبى

لقد كرم الله سبحانه وتعالى تلك الدواب ، المختلفة الأنواع ، المتعددة الأشكال والأحجام والألوان ، والتى منها ما يدب على سطح الأرض ، أو يستقر مختبأً فى لبقاتها السطحية ، أو يطير فى أجواز الفضاء كرمها الله سبحانه وتعالى بالآية التالية :

(وما من دابَّةٍ فِى الأَرْضِ ولَا طَائرٍ يَطِيرُ بِجناحَيْهِ إلا أُممٌ أَمْثَالُكُمْ) .

(صدق الله العظيم)

إننا نستطيع أن نتلمس فى تلك الكلمات البسيطة الواضحة أن الله سبحانه وتعالى قد رفع من شأنها ، وأعلى من قدرها لتصبح فى منزلة الأمم التى يعتز بها بنو البشر ، كما أظهرت الدراسات الدقيقة التى أجريت على البعض منها ـ وذلك بعد نزول القرآن الكريم بأزمنة طويلة ـ أظهرت وجود مجتمعات حيوانية غاية فى الدقة والنظام ، حفاظاً على الصالح العام ، وخدمة لجميع أفراد المجتمع دون تفرقة أو تمييز .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى آية كريمة أخرى ، أكثر شمولا من الآية السابقة مما يتعلق بمخلوقات الله سبحانه وتعالى ، وتلك هى :

(ألَمْ ترَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لهُ من فى السَّماواتِ ومن فى الأَرْضِ والشَّمسُ

(*) ألقى فى الجلسة الثانية فى يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩م .

والقمرُ والنُّجُومُ والجِبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ وكثِيرٌ مِن النَّاسِ) ـ صدق الله العظيم .

لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى راض عن جميع الدواب ، لأنها تسجد له وتسبح بحمده ، ولكنه غير راض عن كل الناس ، بمنهم من آمن ومنهم من كفر .

إن الأصل فى اشتقاق كلمة «الدواب» هو أنها تدب على سطح الأرض ، ويسمع لأنتقالها صوت ، وهى كلها تشترك فى ذلك ، من النملة الصغيرة ، الى هى من أصغر مخلوقات الله حجماً ، إلى الفيل وهو أضخم الحيوانات الأرضية المعاصرة على الإطلاق . ولكل منهما فى القرآن ذكر ، كما أن لكل منهما فى القرآن قصة مشهورة

ولا أظن أن هناك من لايعرف قصة النملة التى شاهدت سليمان وجنوده يجتازون الوادى الذى تعيش فيه ، فخاطبت أفراد قومها قائلة :

(يا أَيُّها النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمنَّكُمْ سُلَيْمانُ وجُنُودُه وهُمْ لَا يَشْعُرُون) ـ صدق الله العظيم .

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على معرفة بلغة الحيوانات على اختلاف أنواعها فقد أدرك قولها على الفور ، وتبسم منه صاحكاً ، وسوف نستعرض بعد قليل موجزاً عن لغة الطير والحيوان .

ما قصة الفيل . وهى التى وردت فى قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ تر كيْف فَعل ربُّك بأَصْحَاب الفِيل) ـ صدق الله العظيم .

وتشير تلك الاية الكريمة إلى جيش «أبرهة الحبشى» الذى أعد جيشاً كبيراً على رأسه فيل ضخم هاجم به بلاد العرب ، وغزا مكة المكرمة سبيل الإسلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم كثيراً يتمتعون بهذا النصر ، بل سرعان ما أرسل عليهم « طَيرا أَبَابِيل » أبادت هذا الجيش عن آخره ، وانقذت مكة المكرمة من الدمار .

وبين هذين الحدين ـ النملة وما هو أصغر منها بكثير كالبكتريا والطحالب الدقيقة والحيوانات وحيدة الخلية ، والفيل وما هو أضخم منه بكثير مثل حوت العنبر

والهرقل وحوت بسكاى وغيرها من الحيتان البحرية ، بين هذين الحدين ينتشر « المليون نوع » من الحيوانات التى استطاع علماء التصنيف توصيفها وتبويبها فى مختلف بلاد العالم إلى :

شعب	Phyla
وطوائف	Classes
ورتب	Orders
وفصائل	Families
وأجناس	Genera
وأنواع	Species
وسلالات	Races

وهى فى مجموعها تستوطن كل إمكان فى اليابسة أوفى البحر ، حيث تستغل جميع البيئات والمناطق الجغرافية وغيرها ، نمنها على سبيل المثال ما يعيش فى الصحارى لجرداء ، أو فى السهول المنبسطة التى يخضر أديمها بعد هطول الأمطار ، أوعند نم الجبال المرتفعة ، أو على سفوحها المنحدرة ، أو فى داخل الكهوف والسراديب التى يصعب الوصول إليها ، كما أن منها ما يعيش فى الأحراش والأدغال والغابات ، أوعلى أشجارها وشجيراتها المتشابكة الفروع والأغصان ، كما يسبح فى أنهار تلك الغابات ومستنقعاتها ومصادرها المائيـة الأخرى أنواع عديدة من الحيوانات المائية ، كما أنها تستخدم أيضاً مساق تلجأ إليها الحيوانات الأرضية عند اشتداد القيظ ، وخصوصاً فى مواسم الحرارة والجفاف .

وهناك عدد كبير من تلك الدواب ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، بدءا من تلك الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والذباب والبعوض والجراد والقمل وغيرها من الحشرات ، ومروراً بالحية والثعبان والهدهد ، وانتهاء بالخيل والبغال والحمير والأنعام والإبل والقردة وغيرها من ذوات الأثداء .

وقد ذكر كل من تلك الدواب إما فى إحدى المناسبات التاريخية أوإشارة لإحدى قصص الأنبياء والمرسلين ، أو تذكرة لما تؤديه للإنسان من خدمات فى حياته ، المنزلية أو الحقلية ، أو لإمداده بما يحتاج إليه من طعام أو ملبس ، أو غير ذلك من الفوائد والمزايا المتعددة التى لا حصر لها

* * *

منطق الطير :

سبق أن ذكرنا أن للحيوانات لغة يتفاهمون بها فيما بينهم ، ويوجد فى القرآن الكريم ما يقطع بصحة هذا القول ، ومن ذلك على سبيل المثال قصة الحديث الذى تم بين الهدهدوسيدنا سليمان عليه السلام ، فقد كان هذا الرسول الكريم يتفقد الطيور والحيوانات الأُخرى فلم يجد الهدهد بينهم ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مالِيَ لا أَرى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِين)

(صدق الله العظيم)

وماهى إلا فترة وجيزة حتى حضر الهدهد ، معتذرًا عن تأخره ، وموضحاً أن السبب فى هذا التأخر كان لأمر عظيم ، فقد شاهد وهو يطيرفى جو السماء قوماً يعبدون الشمس من دون الله ، وتتولى أمرهم سيدة لها « عرش عظيم » ، وكانت تلك السيدة هى بلقيس ملكة سبأ ، فما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر الهدهد بأن يحمل رسالة يلقيها عليها وعلى أتباعها من القوم الظالمين ، داعياً لهم جميعاً بالهدى والاسلام فى قوله الصريح الواضح :

(أَلَّا تَعْلوا عَلَيَّ وأْتونِي مُسْلِمِينَ)

(صدق الله العظيم)

وبقية القصة معروفة لاداعى للاسترسال فيها ، مع أنها من أمتع القصص التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ولا يهمنا فى هذا المجال سوى الحديث الذى دار بين سيدنا سليمان والهدهد ، وذلك لأن هذا الطائر المشهور كان بطبيعة الحال يتكلم « بلغة الطيور » ، وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى :

(يا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيْر)

(صدق الله العظيم)

وواضح هنا أن المقصود « بمنطق الطير » هو « لغة الطيور » التى يتفاهمون بها فيما بينهم ، كما يتخاطب بنو البشر .

اللغة فى مفهومها العام :

لابد لنا قبل الدخول فى تفصيلات أُخرى فيما يتعلق « بلغة الطير والحيوان » من إيضاح المقصود بكلمة « لغة » فى مفهومها العام ، كما هو وارد فى المعاجم

العربية والأجنبية ، فقد جاء فى « المعجم الوسيط » على سبيل المثال أن اللغة « هى أصوات يُعَبِّرْ بها كل قوم عن أغراضهم » ، وجاء فى معجم اكسفورد الكبير أن « اللغة هى طريقة انتعبير بالكلمات المسموعة » وجاء فى معجم وبسترأن « اللغة هى نظام للتخابر بين بنى البشر بواسطة رموز مكتوبة أو صوتية » .

يتضح من تلك التعريفات وغيرها أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين ، وهما : صدور أصوات من مصدر ما ، ثم سماع هذه الأصوات ، وفى الإنسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز « الأحبال الصوتية الموجودة داخل الحنجرة ، ويقوم اللسان الموجود فى أفواهنا بتكييف تلك الأصوات عند مرورها عبر تجويف الفم إلى الخارج ، أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن ، وهى عضو السمع عند الإنسان ، وغيره من الطيور والفقاريات الأخرى .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصَمَمْ ، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التى نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البُكم الذين لايتكلمون ، ولست فى حاجة إلى القول بأن الإنسان يتعلم فى طفولته جميع الكلمات التى ينطق بها كل من حوله من البشر ، أى أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصَمم والبكم فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ومنها على سبيل المثال :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(صدق الله العظيم)

والواقع أن البكْم أو الخرس لَهم لغة خاصة يتفاهَمون بها ، وهى لاتعتمد اطلاقاً على الأصوات ، ولذلك فقد قيل فى تعريفها إنها لغة الأصابع ، وجاء فى قاموس اكسفورد مثلا أن « لغة الأصابع » عبارة عن : « التفاهم برموز متفق عليها مسبقاً بواسطة أصابع اليدين » .

لغة الطير والحيوان :

ونستطيع من هذا المنطلق إن نتدرج بسهولة إلى المقصود « بلغة الطير والحيوان » فهى تختلف فى مفهومها العلمى اختلافاً واضحاً عن « لغة الإنسان » ، كما أنها

تعتمد فى كثير من الحالات على طرق وأساليب متباينة ، يتوقف كل منها على نوع الحيوان الذى يمارس استخدام هذه اللغة أو تلك ، فقد تكون فى كثير من الحالات على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد ، وفى حالات أخرى لاتكون صوتية على الإطلاق ، وتستخدم فيها بعض الحواس الأخرى كالشم واللمس والإبصار وغيرها .

كما أنها قد تكون فى بعض الحالات على شكل « إشارات ضوئية » تصدر عن مجموعات مختلفة من الحيوانات يطلق عليها اسم « الحيوانات المضيئة » ومن أشهر أمثلتها « الذباب المضىء » الذى ينتشر فى كثير من المناطق الاستوائية ، وكذلك « الديدان المتوهجة » ، وكلاهما من الحشرات غمدية الأجنحة ، وقد أجريت عليهما كثير من التجارب المعملية التى أوضحت أن الذكور فقط هى القادرة على إنتاج أضواء قوية ، وأنها لاتصدرها إلا فى ظلمة الليل ، وقد وصفت تلك الأضواء بأنها من « الإشارات التزاوجية » التى يصدرها الذكور لتستدل بها الإناث على أماكن وجودها .

وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الحشرات أو الطيور ، طالما أنها تستخدم فى نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد إلى آخر .

ويحتوى عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع ، يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى سبق ذكرها ، وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة « سلوك الحيوان » أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذى يتم بين أفراد النوع الواحد ، قد يكون بقصد التحذير من أخطار تلوح فى الأفق ، أو التنبيه إلى اكتشاف مصادر غذائية جديدة ، أو التجمع فى قطيع واحد أو سرب واحد ، وخصوصاً أثناء الانتقال أو الهجرة من مكان إلى مكان ، أو بقاء الأسرة متماسكة حتى لايضل صغارها عن الكبار فى موسم التكاثر ، أو غير ذلك من الأسباب .

هجرة الطيور :

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع هجرة الطيور ، تلك الهجرة التى تعتبر من أدق

الظواهر الحيوية ، واكثرها شمولا فى الحفاظ على الحياة ، وفى تلك العملية التى تمارسها أنواع خاصة من الطيور عاماً بعد عام فى دقة ونظام ، تلعب « الأصوات » دوراً أساسياً فى تجمعاتها قبل بدء الرحيل ، ثم المحافظة على الآلاف المؤلفة التى يتكون منها السرب الواحد متماسكة متآزرة ، لايضل منها فرد ، أو ينحرف عن خط سير الجماعة فى كل من رحلتى الذهاب والعودة . .

وتعيش تلك « الطيور المهاجرة »طبيعياً فى الأقاليم الشمالية الباردة من نصف الكرة الشمالى ،فى كل من آسيا وأوروباوأمريكاً الشمالية ، وهى فى الواقع من سكان تلك المناطق ، ولكن عند حلول فصل الشتاء ، تشتد برودة الجو ، ويتساقط الجليد على سطح الأرض ، ويقل الغذاء تدريجياً حتى يكاد ينعدم .

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش سوى القيام بهجرة جماعية نحو الجنوب ، حيث يكون الجو أكثر دفئاً ، والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً ، وقد لاحظ علماء الطيور أنها تَحْدث فى تلك الفترة من تاريخ حياتها ، كثيراً من « الإشارات الصوتية » المتتالية ، وأنها لاتنقطع عن ترديد تلك الأصوات ، حتى تتجمع منها فى النهاية أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب .

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط ، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأناً ،حيث يسير فى مقدمة السرب وكأنه رمز للكفاح والصمود ، ويقطع البعض من تلك الأسراب آلافاً من الكيلومترات فى تلك الرحلة الجماعية ، ولما كانت هناك أنواع من الطيور لاتهاجر إلا ليلاً ، كان من الضرورى صدور أصوات مميزة ، ليبقى السرب متماسكاً أثناء الطيران ، وخصوصاً فى الليالى الحالكة الظلام ، التى لايجدى فيها الإبصار .

وبعد انقضاء فصل الشتاء الأوروبى تعود تلك الطيور إلى أوطانها مرة ثانية ، حيث تكون أجسامها قد امتلأت شحماً ولحماً ، وأصبحت مستعدة للتكاثر فى تلك الأوطان ، ومن الغريب أن بعضا من تلك الطيور التى تهاجر من انجلترا إلى جنوب

أفريقيا ، تعود بعد رحلتى الذهاب والعودة إلى نفس المناطق التى هاجرت منها ، وأحياناً إلى نفس الأعشاش التى كانت تبيض فيها من قبل .

ومن أشهر الطيور المهاجرة التى تصل إلى مصر :

السمانى (السلوى) والكركى (الغرنوق والعنز (اللقلق الأبيض) والوروار والغر والشهرمان والبلبول والخضارى والشرشير والبجع والحبارى والدريجة والشنقب والطيطوى وقنبرة الماء وغيرها .

اصـوات لا تسـمع :

يستطيع الإنسان سماع الأصوات التى تصدر عن الأنواع المختلفة من الطيور ، ومنها على سبيل المثال زقزقة العصافير ، أو هديل الحمام واليمام ، أو تغريد البلابل والكروان . أو تلك الصرخات الحادة التى تطلقها الطيور البحرية عندما تشاهد سرباً من الأسماك يسبح بالقرب من سطح الماء .

ولكن هناك أصواتاً أخرى لا يستطيع الإنسان سماعها على الاطلاق ، وتلك هى أصوات الخفافيش . والخفافيش من الحيوانات الثديية ، الأنثى منها تحمل وتلد وترضع صغارها ، كما تفعل الأنثى من بنى البشر . وهى من الحيوانات الليلية التى تختبىء فى أوكارها أثناء النهار ، ولا تخرج للبحث عن غذائها إلا ليلا .

وقد لوحظ منذ قديم الزمان أنها قادرة على الطيران بسرعة فائقة ، وفى الظلام الحالك ، دون أن ترتطم بالأشجار أو الحواجز الاخرى التى تعترض طريقها ، ولم يكن من المستطاع تفسير تلك الظاهرة ، إلا بعد التجارب الواعية التى أجراها عالم الأحياء الإيطالى المشهور « سبالنزانى » ، فقد كان يضع فى معمله عدداً من الأحبال ، يمدها فى مختلف الاتجاهات ، وقد علقت بها أجراس خفيفة الوزن سرعان ما تسمع جلجلتها عند لمس الأحبال ، ثم يطفئ بعد ذلك أضواء المعمل ، ويتركه فى ظلام حالك ، ويطلق الخفافيش موضع التجربة من أقفاصها ، فكانت تطير فى مختلف الاتجاهات ، حتى لتكاد تلمس وجهه ، وهو قابع فى سكون تام ، فى أحد الاركان دون أن يدق جرس واحد من تلك الأجراس العديدة ، وعرف بعد ذلك أن الخفافيش تصدر أثناء طيرانها الليلى « أصواتاً فوق

سمعية » ، لاتستطيع الأُذن البشرية إدراكها ، وأن تلك الأَمواج الصوتية تنعكس من الحواجز التى ترتطم بها ، فتلتقطها أُذن الخفاش ، رتنحرف عن تلك الحواجز فلا ترتطم بها . وقد استخدمت تلك المعلومات فيما بعد فى تصنيع « أجهزة الرادار » .

دابة الأرض :

بين دواب الأَرض جميعاً على اختلاف أشكالها وأحجامها دابة صغيرة اختصها الله سبحانه وتعالى بحدث عظيم ، وتلك هى « دابة الأَرض » التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيه المَوْتَ مَادلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكل مِنْسَأَته)

(صدق الله العظيم)

إن ما يدور حول تلك الدابة من حديث يدل بشكل قاطع على أن المقصود بها هو « الأَرضة » (النملة البيضاء) .

وكانت الأَرضة معروفة عند العرب حيث وصفت بأنها دويبة صغيرة تشبه النملة . وقد اشتق اسمها من فعل « أرض » بمعنى أكل ، أما المنسأَة فهى العصا الغليظة التى تكون عادة فى حوزة الراعى ليهش بها على الأَغنام أو يتوكوءا عليها ، وموجز تلك القصة أن سيدنا سليمان عليه السلام قد أدركه الموت وهو واقف على قدميه ، ومرتكز على عصاه المصنوعة من الخشب . وكانت الأَرضة قد وصلت إلى تلك العصا من باطن الأَرض ، وأخذت تنخر فيها من الداخل تدريجياً حتى أتت عليها تماماً ، ولم يبق منها سوى قشرتُهَا الخارجية الرقيقة ، وسرعان ما سقط سيدنا سليمان بعد ذلك على الأَرض ، حيث أعلنت وفاته بعد هذا السقوط .

والواقع أن « الأَرضه » تختلف كل الإختلاف عن « االنمل الحقيقى » الذى يعرفه كل إنسان ، والذى يعيش معه فى المنازل والحدائق والمزارع والمصانع وغيرها . فالنمل الحقيقى له جسم صلب داكن اللون عادة ، ولكن « الأَرضة » جسمها لين فاتح اللون ، وهذا هو السبب فى إطلاق اسم « النمل الأَبيض » عليها ، ولايوجد للأَرضة خصر ضيق بين الصدر والبطن كما فى النمل الحقيقى ، كما أنهما يختلفان أيضاً في العادات الغذائية .

فالنمل الحقيقى يأكل كل شىء يعثر عليه من بقايا الحيوانات الحية أو الميتة والأوراق النباتية والفطريات ورحيق الأزهار والعصارات النباتية وما يستطيع الوصول إليه من طعام الإنسان كالخبز والسكر والخضراوات والمشروبات الحلوة وغيرها ، بينما لاتتغذى الأرضة إلا على الخشب والمصنوعات الخشبية ، كما نتغذى فى الغابات على جذور الأشجار وسيقانها وفروعها المختلفة .

وفى مجتمع « الأرضة » يمكن تمييز أربعة أنواع من الأفراد ، وهى الذكور والملكات والجنود والشغالة ، ولكل منها وظيفة محددة تودى لصالح هذا المجتمع ، وتكون الذكور عادة قليلة العدد صغيرة الحجم وظيفتها الوحيدة هى إخصاب الملكات .

ولكل مستعمرة ملكة واحدة لاتقوم بأى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى انتاج البيض ، ويوضح لنا عالم الحشرات « اسكيريتش » (Escherich) فى بحث أجراه على أحد الأنواع الإفريقية من الأرضة أن الملكة تضع مايقرب من ثلاثين ألف بيضة فى اليوم الواحد ، أى مايقرب من عشرة ملايين بيضة فى العام ، ولما كانت الملكة تعيش مايقرب من عشرة أعوام فى المتوسط فهى تضع مائة مليون بيضة خلال حياتها . وتوضح لنا تلك الأرقام السرعة التى تنتشر بها الأرضة إذا ما صادفت البيئة الصالحة لحياتها .

وهناك من الأفراد من تخصصوا فى الدفاع عن المستعمرة وسكانها وهم الجنود ، وهم يختلفون عن بقية السكان بشكل واضح ، إذ أن لهم رؤوسًا كبيرة وفكوكاً قوية حادة تستخدم كسلاح فتاك فى الهجوم على أى دخيل يحاول اقتحام المستعمرة أو التعرض لسكانها ، وبذلك يعيش باقى السكان فى أمن وسلام ، ومن الغريب أن هولاء الجنود قد يكونون من الذكور أو من الإناث على حد سواء .

والشغالة أيضًا بعضها من الذكور ، والبعض الآخر من الإناث ، وهى تقوم بجميع الأعباء المنزلية المتعلقة بحياة

المستعمرة وازدهارها ، ومنها على سبيل المثال جمع الغذاء الكافى لجميع سكان المستعمرة، ثم القيام بإطعام الملكة والجنود و « الحوريات » الصغيرة التى تفقس من البيض ، وبناء الأعشاش الجديدة اللازمة للسكان الذين يتزايد عددهم يومًا بعد يوم ، وأيضًا عمل الممرات أو السراديب التى تربط جميع الأعشاش بعضها ببعض لسهولة الاتصال فيما بينها .

والواقع أن تلك الشغالة هى التى تقوم بقرض الخشب وابتلاع أجزاء من التربة ، متخذه من تلك المواد طعامًا لها ، وبعد هضم هذا الطعام تقيئ الشغالة جزءًا منه لإطعام الملكة والجنود والحوريات الصغيرة كما ذكرنا من قبل . وهى تستخدم فى بناء الأعشاش والممرات مادة من جزيئات التربة تبللها بلعابها ، ثم تقيئها بعد فترة من الزمن فتصبح صالحة للاستعمال — « كمادة لاصقة » ، ويقول عالم الحشرات المشهور هويلر (Wheeler) — إن هذه المادة تصبح بعد جفافها فى صلابة « الأسمنت » الذى يستخدمه الإنسان فى عمليات البناء والتشييد .

ومن أطرف ما عرف عن تلك الدابة الصغيرة أنها قد مارست « زراعة الحدائق » قبل أن يعرفها الإنسان بأزمنة بعيدة ، إذ تقوم الشغالة بالتجول بين نبات الأرض لتجمع منه بعضًا من الفطريات (وهى من النباتات البسيطة الخالية من الكلوروفيل) ثم تقوم بزراعتها داخل المستعمرة ، حيث تنمو إلى حدائق مزدهرة تسر الناظرين ، ويوضح لنا « هويلر » أن « حدائق الفطريات » التى تتم زراعتها على هذا النحو ، تصبح بعد نموها « دورًا للحضانة » فى مستعمرات الأرضة ، فهى تموج بالآلاف العديدة من الأفراد حديثة الفقس ، وتقوم تلك الأفراد الصغيرة فى غدوها ورواحها داخل تلك الحدائق بجنى ثمارها ذات القيمة الغذائية العالية . ومن الغريب أن الشغالة الناضجة وكذلك الجنود لا يقتربون من ثمار تلك الحدائق على الإطلاق ، بل يتركونها لمن هم فى حاجة إليها من صغار النمل .

ولا يقتصر العيش فى جماعات منتظمة يسودها الهدوء والدقة والنظام على الأرضة وحدها ، بل هناك أيضًا حشرات أخرى كالنمل أو النحل تمارس مثل تلك « الحياة

الاجتماعية » ، حيث وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها « أُمَمٌ أَمْثَالُنَا » ، ولـكنى اخترت من بينها جميعًا تلك الأرضة التى أكلت عصا سيدنا سليمان عليه السلام ، ويرجع هـذا الاختيار فى الأساس لأن « الأرضة » قد أخذت تنتشر فى وقتنا الحاضر انتشارًا سريعًا فى بعض القرى المصرية من صعيد مصر ، حيث طالعتنا الأنباء بأنها دمرت قرية بكاملها وشردت جميع سكانها ، وتلك هى « قرية السلام » بمحافظة أسوان ، ثم أخذت بعد ذلك تنتشر فى كثير من القرى المجاورة ، حيث تلتهم المنازل المصنوعة من الخشب وكل ما تحتوى عليه من الأثاث أو المصنوعات الخشبية كما عرفنا أيضًا أنها انتقلت إلى كل من السويس وبور سعيد ، حيث بدأت فى مهاجمة المنازل الخشبية ، وخربت مئات الأطنان من الخشب المستورد فى مخازن الجمارك والتجار ، مما استدعى القيام بحملة مكثفة يقوم بهـا حاليًا المختصون فى وزارة الزراعة لمكافحة تلك الآفة الخطيرة ووقف انتشارها إلى أماكن أخرى .

الانسان ودواب الأرض :

هناك من الآيات البينات ما يدل بشكل واضح على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى الإنسان نفسه على أنه من دواب الأرض ، ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية :

« ولوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ علَيْها مِن دَابَّة وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُسمًّى » . (صدق الله العظيم)

وآية أخرى مشابهة :

« إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عِند اللهِ الَّذِين كَفرُوا فهمْ لَا يُؤْمِنون » . (صدق الله العظيم)

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان عن جميع المخلـوقات الأخرى بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، كما أوضح دون لبس أو غموض أنه سبحانه وتعالى قد وضع كل تلك المخلوقات فى خدمة الإنسان لينعم بالحياة الحرة الكريمة .

ولا تقتصر المنافع والمزايا على تلك الدويبات الصغيرة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ومنها النحل على سبيل

المثال ، وهى التى يقول عنها فى كتابه الكريم :

« يَخرُجُ مِن بُطونهَا شرَابٌ مُخْتلِفٌ أَلْوانُه فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس » .

(صدق الله العظيم)

بل تمتد تلك المنافع والمزايا فى الأساس إلى تلك الدواب الكبيرة التى تودى للإنسان خدمات لا تعد ولا تحصى . فهناك مثلًا دواب الحمل التى تستخدم فى الركوب وجر العربات وحمل الأثقال ، وهى التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« والْخيْلَ وَالْبغَال وَالْحَمير لِتركَبُوهَا وزِينة » .

(صدق الله العظيم)

بل إنها تستخدم أيضا فى الحرب والقتال مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهمْ ما اسْتطَعْتمْ مِن قوَّة ومِن ربَاطِ الْخيْلِ تُرْهِبُون بِهِ عدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ »

(صدق الله العظيم)

الإنسان من لحومها وألبانها طعامًا له ، ولأطفاله فى مختلف بلاد العالم ، وتلك هى « الأنعام » التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« والْأَنْعَامَ خلقَها لَكمْ فِيهَا دِفْءٌ ومنَافِع ومِنْها تأكلون » .

(صدق الله العظيم)

وفى آية أخرى أكثر شمولًا :

« وجَعَل لَكُمْ مِن جُلودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكمْ ويوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشعارهَا أَثاثًا ومتاعًا إِلَى حِين » .

(صدق الله العظيم)[1]

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أصدره المجمع عام ١٩٧٠ أن كلمة « الأنعام » تطلق فى الأصل على الإبل ، كما أنها تطلق أيضًا على الإبل والبقر والغنم على التوسع . وهى جميعًا من ذوات الأربع (أى تلك التى تمشى على أربعة من الأرجل) .

وهناك أيضًا تلك الدواب التى يتخذ

---

(١) الصوف للغنم ، والشعر للمعز ، والوبر للإبل .

أما الإنسان – وهو الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على رأس تلك المخلوقات جميعًا – فهو يمشى على رجلين اثنتين فقط ، ويكون فى سيره معتدل القامة ، مرفوع الرأس بطريقة لا يدانيه فيها أى مخلوق آخر على الإطلاق . وهو ما تشير إليه الآية الكريمة التالية :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »

(صدق الله العظيم)

وهناك آية أخرى مشابهة تقول :

« الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » .

(صدق الله العظيم)

وتحتوى كل من هاتين الآيتين على إشارة واضحة إلى حسن القوام واعتدال الجسم ، كما هو مشاهد وملموس .

وقد أدت استقامة القامة وارتكاز الجسم على رجلين اثنتين بدلًا من أربع ، إلى تحرير الرجلين الأماميتين ، حيث تحورتا إلى ذراعين يستخدمهما الإنسان فى مختلف الأعمال والأغراض ، ولعل من أهم تلك التحورات انزلاق الأبهام ليصبح فى مواجهة الأصابع الأخرى ، حيث يستطيع الإنسان عن طريق تلك اليد القابضة الإمساك بمختلف الآلات والأدوات .

ويعزى كثير من العلماء تفوق الإنسان وتقدمه فى العلوم والفنون ، وإتقانه لكثير من الحرف اليدوية التى تحتاج إلى مهارات عالية ، ونجاحه فى ولوج الميادين الزراعية والصناعية وغيرها ، يعزون كل تلك القدرات إلى امتلاكه تلك اليد القابضة التى يقع فيها الإبهام فى مواجهة الأصابع الأخرى فى اليد .

تلك نبذة موجزة عن « دواب الأرض فى القرآن الكريم » ، وهى التى تشكل فى مجموعها موضوعًا متسع الأرجاء ، ومتعدد النواحى والأغراض ، لعلى أكون قد وفقت فيها فى إيضاح بعض الجوانب العلمية والتطبيقية التى لا تخفى أهميتها على أحد ؛ وعذرى فى ذلك هو ضيق الوقت الذى منح لى لإتمام هذا الحديث .

والله ولى التوفيق .

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع